

* * *

السَّيِّدة نَفيسَة

رَضِيَ اللَّهُ عَنها

نجلاء شوقى حسن

وقبرُها الّذى دُفنتْ فيه ، كانت ـ رضى اللّه عنها ـ قد حَفرتْهُ بيدَيها فى بَيتِها ، وكانتْ كثيرًا ما تَنزلُ وتُصلّى فيه ، وقد خَتمت فيهِ قِراءةَ القُرآنِ كاملاً مِائةً وتِسعينَ مَرَّة .

وأوَّلُ من بَنَى على قَبرِها ـ رضى اللّه عنها ـ هو عُبيدُ اللّهِ بنُ السَرِىّ بنُ الحكَمِ أميرُ مَصر . وصَدقَ اللّهُ العظيم إذ يَقول فى كتابِهِ العَزيز :

﴿ إنّما يُريدُ اللّهُ ليُذهِبَ عنكم الرِّجسَ أهلَ البَيتِ ويُطهِّركُم تَطهيرا ﴾ .

وهنا قالتْ حَنان : لقدِ أمْتَعتَنا يا أبى وأفَدتَنا فائدةً كَبيرة ، بقصَّةِ حياةِ العابدَةِ العَظيمَةِ السَّيِّدةِ نَفيسة ـ رضى اللّه عنها .

السَّيِّدةُ نفيسَة

رضِيَ اللَّهُ عنها

اجتَمعتِ الأُسرةُ على مائِدَةِ العَشاء : الأبُ والأمُّ والأبناء : عادِل وشَريف وحَنان . قالَ الأب بصَوتٍ مَسموع ، وهو يمُدُّ يدَه إلى الطَّعام : بسمِ اللَّهِ الرَّحمنِ الرَّحيم ، فمَدَّ كلٌّ منهم يدَهُ إلى الطَّعام وهو يُردِّد هذه الجُملةَ الكَريمَة .

ثمَّ قالَ الأب : اللَّيلةَ ليلةُ الخَميس ، وغدًا إن شاءَ اللَّهُ يومُ الجُمُعة ، فهلْ تَرغَبونَ أن نَخرُجَ فيه للنُّزهة ، أو نَقضيهِ فى البَيْت ؟

نَظر الأولادُ بعضُهم إلى بَعضٍ فى دَهشَةٍ وسُرور ، وقالَ شريف :

ـ هل هُناكَ يا أبى مَكانٌ مُحدَّدٌ سنَذهَبُ إلَيْه .

قالَ أبوه : فى الحَقيقَةِ لا ، ولكنْ يُمكِنُكم اختِيارَ المَكانِ المُناسبِ الّذى يُسعِدُكم .

قالَ عادِل : يُمكِنُنا أن نَقضِيَ اليَومَ فى حَديقَةِ الحَيَوان ، فأنا أشْتاقُ لرُؤيَةِ الأُسودِ والنُّمور ، والدِّبَبةِ والقُرود .

وقالَ شَريف : ولِماذا لا نَذهبُ لزِيارَةِ قَلعَةِ صَلاحِ الدّين ؟

وقالَتْ حَنان : لدَىَّ فِكرةٌ قد تكونُ أفضَل .. أنْ نذهَبَ إلى مَسجدِ السَّيِّدَةِ نَفيسَة ، حيثُ نُؤدّى صلاةَ الجُمُعة ، ثمَّ نَخرجُ ونَقضى بعضَ الوقتِ على ضِفافِ النّيل .

فتدخَّلتِ الأمُّ وقالتْ فى سُرور : واللّهِ إنّه لرَأىٌ صائبٌ يا حَنان .

وسألَها أبوها : ولِماذا وقَعَ اختِيارُكِ يا حَنانُ على مسجدِ السَّيِّدَةِ نَفيسة ، رَضِيَ اللّهُ عَنها ؟

قالتْ حَنان : لأنّنى سمِعتُ عنها ، وأحبَبتُ أن أرَى مسجدَها وأُصَلّى فيه .

قالَ أبوها : حَسن ! نُؤَدِّى صَلاةَ الجُمُعةِ غدًا فى مَسجدِ السَّيِّدَةِ نَفيسة ، ونَقوم قَريبًا إنْ شاءَ اللّه بِزيارَةِ حَديقَةِ الحَيَوانِ وقَلعَةِ صَلاحِ الدّين .

واقْتَربَت حَنانُ من أَبيها ، وطلبَتْ منه أن يَقُصَّ عَليهِم قِصَّةَ حَياةِ السَّيِّدةِ نَفيسَة ، رَضِيَ اللّهُ عَنها .

فقالَ أبوها فى سُرور : ما أجملَ الحَديثَ عنها يا ابْنَتى ! إنّها السَّيِّدَةُ نَفيسَة ، بنتُ السَّيدِ حَسَنِ الأنْوَر ، ابنِ زَيدٍ الأبْلَج ، ابنِ سيِّدِنا الحُسَين ، ابنِ الإمامِ عَلِيّ .. رضِيَ اللّهُ عَنهُم أجْمَعين . وُلِدت رَضِيَ اللّهُ عنها بمَكَّةَ المُكرَّمَة ، يومَ الأربعاءِ الحادى عَشَر من رَبيعِ الأوَّل سنة ١٤٥ هجرِيَّة .
وقد وُلِدتْ ونَشأَتْ فى مَكّة ، مَدينةِ جَدِّها النّبىِّ مُحمَّد ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم .

أمّا أبوها فهو السَّيِّدُ حَسَنُ الأنور ، وكانَ يُسمَّى شيخَ الشُّيوخ ، وكانَ والِيًا على المَدينةِ المُنوَّرةِ من قِبَلِ الخَليفةِ أبي جَعفَر المَنْصور ، وكانَ إمامًا وعالِمًا جَليلاً من كبارِ آلِ البَيت ، ويُعدُّ من التّابِعين ، وكانتْ حَياتُه حافلَةً بجَليلِ الأَعمالِ وكريمِ الخِصال ، إلى أن تُوفِّيَ رضِيَ اللّهُ عنه وهو في طَريقِهِ إلى الحَجّ في مَكانٍ قَريبٍ من مَكّة ، فحُمِل إلى مَكّةَ ودُفِنَ فيها ..

وللسَّيِّدةِ نَفيسَة ـ رضى اللّه عنها ـ تِسعةُ إخْوةٍ وأُختٍ هم : أبو القاسِم ، مُحمَّد ، علِيّ ، إبراهيم ، زَيْد ، عَبدُ اللّه ، يَحيىَ المُتوَّجُ بالأنْوار ، إسْماعيل ، إسحَق ، أمُّ كُلثوم .

أمّا زوجُها فهو إسحاقُ المُؤتَمَن ، ابنُ جَعفَر الصّادِق ، ابنُ محمَّدِ الباقِر ، ابنُ عَليٍّ زَينِ العابدين ، ابنُ سيِّدِنا الحُسَين ، ابنُ الإمامِ عليٍّ رضى اللّه عنهُم أجْمَعين . وقد

زوَّجَها له أبوها بعدَ أن رأى النَّبيّ ـ صلَّى اللَّه عَليه وسلَّم ـ فى المَنام ، يأمُره بقَبول إسْحاق زوجًا لها . وتمَّ العقدُ عليها يومَ الجُمُعةِ الخامسُ من رَجب سنةَ ١٦١ هِجريَّة . وكانَ إسحاقُ زَوجُها يَشتهِرُ بينَ النّاس بالعِلمِ والفَضلِ والخَيرِ وحَميدِ الخِصال ، وقد اشتَغلَ برِوايَةِ الحَديث .

وقد أنجبتْ السَّيِّدةُ نَفيسَة ـ رضى اللّه عنها ـ ولَدًا وبِنتًا هُما أبو القاسِم وأمُّ كُلثوم . وعاشَتْ ـ رضى اللّه عنها ـ عابِدةً زاهِدةً تَصومُ النَّهارَ وتَقومُ اللَّيل ، وكانتْ ـ رضى اللّه عنها ـ رغمَ ثَرائِها لا تأكُلُ إلاّ أكلَةً واحدَةً كلَّ ثَلاثِ لَيال ، ولا تأكُلُ شَيئًا إلاّ معَ زَوجِها . وكانت تَتفانَى فى عِبادَةِ اللّه عزَّ وجَلَّ وطاعَتِه ، وقد حجَّتْ ثَلاثينَ مَرَّة ، كانَ أكثَرُها سَيرًا على الأَقدام ، تَقرُّبًا لِلّهِ سُبحانَه وتَعالى .

وتقولُ بنتُ أخيها زَينبُ بنتُ يَحيَى المُتوَّج : خدَمتُ عَمَّتى نَفيسَةَ أربعَينَ سَنَة ، فما رَأيتُها نامَت ولا أَفطَرت النَّهار ، فقلتُ لها يَوما : أما تَرفُقينَ بنفسِكِ يا عَمَّتى ؟

فقالتْ : كيفَ أرفُقُ بنَفسى وأمامى عَقباتٌ لا يَقطعُها إلاّ الفائِزون .

وكانتْ ـ رضى اللّه عنها ـ تَتحلّى بالصَّبرِ عندَ الشَّدائد ، كما اشتَهرتْ بالعَطفِ على المَساكين ، ونُصرَةِ الضَّعيف ، وعِيادَةِ المَريض ..

وكانت ـ رضى اللّه عنها ـ تُؤمِنَ بأنَّ من عبدَ اللّهَ مُخلِصًا كان الكونُ كلُّه مُسخَّرًا له . وكانَ شِعارُها دائما « ولا يَظلِمُ ربُّكَ أحَدا » .

ومن أقوالِها ـ رضى اللّه عنها : لا مَناصَ من الشَّوكِ فى طَريقِ السَّعادة ، فمن تَعدّاه وصل » ، « إنَّ الصَّلاةَ صلةٌ بين العَبدِ وربِّه ، وهى المِفتاحُ الَّذى تُفتحُ به خَزائِنُ

الرّوحانِيّات ، ورَكعتانِ تَتوفّر فيهما هذِه الصِّلَة ، خيرٌ من ألفِ رَكعةٍ جُرِّدت مِنها » .

وكانتْ تَقولُ أيضا : « إذا سَجدت ، فتذَكّر أنّك وضعتَ أكرَمَ ما فى الإنسانِ وهو جَبهَتُه على الأَرض ، طاعةً لِلّهِ واعتِرافًا بفَضلِهِ وخوفًا منه » .

ولقد كانت السَّيدةُ نَفيسة ـ رضى اللّه عنها ـ تَمتازُ بالذّكاءِ وقوَّةِ الذّاكِرَة وسُرعَةُ الحِفظ ، علَى الرُّغمِ من أنّها كانت أُمِّيَّة . فقد حَفظَتِ القُرآنَ الكريمَ حِفظًا جيِّدا ، وأجادتْ تَفسيرَ آياتِه ، وعَرفتْ أحكامَه ، كما حفِظتْ أحاديثَ جَدِّها المُصطَفَى ـ صلّى اللّه عليه وسلّم ـ وفَهِمَتها فهمًا جيِّدا ، وكانتْ تَشرحُها للنّاس ، حتّى كان من الّذينَ يَحضُرون مَجلِسَها الدينىّ ، الإمامُ الشّافِعِىّ ـ رضى اللّه عنه ـ الّذى كانَ يُكثِر من زِيارَتها للاسْتِزادَةِ

من عِلمِها . وكانَ يُصلِّى بها التَّراويحَ فى شهرِ رَمضان ، وكانَ دائما يَسألُها الدُّعاءَ له .

فإنْ حدَثَ ذلك من الإمامِ الشَّافِعىّ ـ رضى اللّه عنه ـ فإنَّما يدُلُّ هذا على نَقاءِ قلبِ السَّيِّدةِ نفيسة ـ رضى اللّه عنها ـ فهى من آلِ بَيتِ الحَبيبِ المُصطَفى ـ صلّى اللّه عليه وسلّم ـ ذلكَ البيتُ الّذى مدحَهُ اللّهُ سُبحانَه وتَعالى بقَوله : ﴿ إنّما يُريدُ اللّهُ لِيُذهِبَ عَنكُمُ الرِّجسَ أهلَ البيتِ ويُطَهِّرَكُم تَطهيرا ﴾ سورة الأحزاب ٣٣ .

وبذلكَ تكون قد سَلكتْ طَريقَ جَدِّها المُصطَفى ـ صلّى اللّه عليه وسلّم ـ فى القِيامِ والصِّيام لِلّه سُبحانَه وتَعالَى بقَوله ﴿ لقد كان لكُم فى رَسولِ اللّهِ أُسوةٌ حَسَنَةٌ لمن كانَ يَرجو اللّهَ واليَومَ الآخِرَ وذكَرَ اللّهَ كَثيرا ﴾ .

فلقد كانَ رسولُ اللّه ـ صلّى اللّه عليه وسلّم ـ يصومُ النّهارَ ويَقومُ اللّيل حتّى تورَّمتْ قَدماه ، فقالتْ له السَّيِّدةُ

عائشَةَ ـ رضى اللّه عنها ـ لِماذا تُجهِدُ نفسَـك وقـد غفَـرَ اللّهُ لك ما تَقـدَّمَ مـن ذَنبِـك ومـا تـأخّر ، فقـالَ لهـا : أفَـلا أكونُ عَبدًا شَكورا ؟

وكذلِكَ السَّيِّدةُ نَفيسة ـ رضى اللّه عنها ـ كانت دائمةَ الذّكرِ لِلّهِ ربِّ العالَمينَ فى السِّرِّ والعَلانيَة ، وأنَّ ذلك يدُلُّ على عَظيمِ قَـدرِ العِبـادة ، وأرفَعُهـا تـلاوةُ القـرآن . واللّـهُ سبحانَه وتَعالى يَقول فى الحَديث القُدُسِيِّ : « أنا عنـدَ ظـنِّ عبدى بى حينَ يذكُرُنى ، فإن ذَكرنى فى نَفسِهِ ذكَرتُـهُ فـى نَفسى ، وإن ذَكرنى فى مَلإٍ ذكرتُه فى ملإٍ خيرٍ من مَلئِـه ، وإن تَقـرَّب إلىَّ شِبرًا تَقرَّبـتُ إليـه ذِراعـا ، وإن تَقـرَّبَ إلىَّ ذِراعا تَقرَّبتُ إليه باعا ، وإنْ أتانى يَمشـى أتيتُـهُ مُهَـروِلا » وكـلُّ ذلـك يَـدلُّ علـى كَثرةِ تَقْواهـا وخَوفِهـا مـنَ اللّـه .

ويظهَرُ ذلك مُتَجلّيًا فى كَلامِها وأقْوالِها . فقد قالَت :

«لا مَناصَ من الشَّوكِ فى طَريـقِ السَّعادة ، فمـن تعـدّاهُ وَصَل » .

وعندَما مرِض الإمامُ الشّافِعىّ ـ رضى اللّه عنه ـ أرسـلَ إلَيْها كعادَتِه ، يَلتمِسُ مِنها الدُّعاء .

فَحينَما ذهبَتْ إليه لتَعودَه ، قالت : « متّعهُ اللّـه بـالنّظرِ إلى وَجهِهِ الكَريم » فلمّا سمِعَ الإمامُ الشّافِعىّ ـ رضى اللّـه عنه ـ هذا الكـلام ، عـرفَ أنّـه لاحِقٌ بربِّـه ، فـاوصَى أن تُصلّىَ عليه السَّيِّدةُ نَفيسَة صَلاةَ الجَنازَة .

ولقد نفّذت ـ رضى اللّه عنها ـ وصِيَّته ، وصلّت عليـه مأمومَة .

وذاتَ يومٍ مَرِضَ بِشرُ بن الحارِث ـ رضـى اللّـه عنـه ـ وكانَ دائمَ الـتّردُّدِ عليهـا ، فقـد عالَجَتْـهُ السَّـيِّدةُ الطّاهرَةُ وهو مَريض . وبَينَما هى فى زِيارَته ـ رضـى اللّـه عنـه ـ

دخلَ الإمامُ أحمدُ بنُ حَنبلَ ليُعالِجَه . فلمّا عَرَفَها طلب فورا من بِشرِ بنِ الحارِثِ أن يسألَها الدُّعاء .

وقالَ لها بشرُ بنُ الحارِثِ ـ رضى اللّه عنه : ادْعِى اللّه لَنا : فقالت ـ رضى اللّه عنها ـ اللّهمُّ إن بِشرَ بنَ الحارِثِ وأحمدَ بنَ حَنبلَ يَستَجيرانِ بكَ من النّار ، فأجرهُما يا أرحَمَ الرّاحِمين .

وفى أوَّلِ جُمُعَةٍ من رَمضانَ سنة ٥٢٨ هـ ، اشتَدّت عَليها آلامُ المَرض وكانتْ صائمَة ، فنصَحَها الأطِبَّاءُ بضَرورةِ الإفْطار . ولكنّها ـ رضى اللّه عنها ـ رَفضَتْ بشِدَّة ، وقالتْ لهم :

ـ واعجبًا لكم ! إنَّ لى أربعينَ سنةً أسألُ اللّهَ سُبحانَه وتَعالى أن يَتوفّانى وأنا صائِمَة ، أفَأُفطِرُ الآن ؟ معاذَ اللّه .

وفى يومِ الجُمُعةِ الخامسَ عشرَ من شَهرِ رَمضان ، نراها تَجتَهدُ فى العِبادَةِ أكثَرَ وأكثر ، وأخذتْ فى تِلاوةِ سورَةِ

الأنعام ، إلى أن وصلَتْ إلى قولِ اللّهِ سُبحانَه وتَعالى : ﴿ لهُم دارُ السَّلامِ عندَ ربِّهم وهو وليُّهُم بما كانوا يَعمَلون ﴾ .

تقولُ السَّيدَةُ زَينبُ بنتُ أخيها ، القائمَةُ على خِدْمتِها : فضَمَمتُها إلى صَدرى ، فتَشهَّدَت شَهادةَ الحَقّ ، ثم قُبِضَت وفاضَتْ روحُها الطّاهِرَةُ إلى بارِئِها ــ سُبحانَه وتَعالى ــ فحزِنَ عليها المِصريّونَ حُزنًا عَظيما .

وكانتْ زَينبُ بنتُ أخيها قد أرسلَتْ من قبلُ إلى زوجِها إسحاقَ ــ رضى اللّه عنه ــ فحضَر وقرَّر أن يذهبَ بها إلى المَدينَةِ ليَدفِنَها هناك . ولكنَّ المِصريّينَ ألَحّوا عليه وطَلبوا منه أن يَترُكَها بمِصر ، فهم سُعداءُ بآلِ بَيتِ النّبىِّ ــ صلّى اللّه عليه وسلّم ــ وأصَرّوا على بَقائِها بمِصر ، ليَتمتّعوا ببَركَتِها .